جديد تحت الشمس

قصة

بقلم زوالزون أيوب

انتصب بجسمه الطويل النحيف ، وسكن حتى جاكى ما يحيط به من انصاب . وتنفس نفساً طويلاً . كان يستنشق الراحة والهدوء والحرية، تلك الأمور الحبيبة التي قضى كل شبابه في البحث عنها . هوذا الجمال حواليه، جمال في السماء وجمال في الارض وجمال فيما يحيط به من بشر . جمال في الاجسام ، وأدب جم ورقة مفرطة في الكلام . ما الذ هذا وما احلاه . وانطلق من جموده يسير الهوينا ، يشبع نظره في كل ما يحيط به ، ومر « بكوتيه » متربعاً فوق كرسيه ، فتوقف احتراماً واجلالاً ، ومضى ينعم النظر في وجهه الصارم ورأسه الجبار . وكدر عليه صفو صلاته هرير آلات البناء وهي تعيد الى الوجود ما افنته قنابل الحرب . كل هذا الجمال، ومع ذلك فقد اراد هؤلاء الناس الحرب يوماً . واعاد النظر الى وجه كوتيه فخيل اليه ان الوجه الصخري يبتسم استخفافاً واحتقاراً . وود لو يجد من يتبادل معه الحديث ليفسر له هذا التناقض المؤلم . وتذكر انه لا يعرف من الالمانية الا بضع كلمات منها « ايش اوس » . اهو غريب كما تعني هذه العبارة ؟ انه ليستنكر ذلك . واطلت عليه من وراء كرسي « كوتيه » عينان ذهبيتان واسعتان ، فيهما تطلع وحيرة . هذا شيء جديد . عينان ذهبيتان بين مئات الاعين النجل الزرق ، واكثر من ذلك ، ان في الوجه ملامح عزيزة لا يسهل عليه نسيانها . ولعل ذلك ما دفعه الى التقدم للحديث غير هياب ولا وجل ، خلافاً للمألوف من عاداته . وابتسمت العينان لما اقترب منهما ، وتكلم كأنه يتحدث معهما فقط . وبدأ التحية بالانكليزية ، واتى الجواب ، يا للسماء ! ظن انه يسمع نغمة من انغام شتراوس ، صوت عذب ناعس ، وكانت تلفظ التاء ثاء تزيد في حلاوة ذلك الصوت .

قال : « خبريني بحق السماء كيف يستطيع المرء ان يفكر في الحرب وهو وسط هذا الجمال ؟ وقد بلغ من التقدم والرقي مثل هذا المبلغ ؟ »

فأجابت : « ومن يريد الحرب ؟ ولكنها تأتي حتماً ، امن الممكن القضاء على الحرب ؟ »

فقال : « ان الانسان قد بلغ من التقدم ما حقق له كل اسباب الراحة فلماذا لا يستطيع ان يبحث عن مسببات الحرب بطرقه العلمية الجديدة فيقضي عليها ؟ »

فابتسمت وقالت : « اي مذهب هو مذهبك ؟ »

فقال : « انا انتسب الى فئة تنشد الحرية والجمال ولا تعترف بالفروق بين الالوان والاجناس . »

وتساءلت : « أتجد ما تنشده هنا ؟ »

فأجاب : « انه مبثوث حوالي ، ليس هنا شيء قبيح سوى مخلفات الحرب ، ولكن نصف هذا الجمال في عينيك الذهبيتين » .

وبدا المرح في وجهها المشرق ، والتمعت اسنانها البيضاء من وراء شفتيها المدومتين ، ولاحت في صفحتي خديها غمازتان زادتاها اشراقاً ، واهتز جسمها اللدن وهي تضحك مسرورة راضية .

وعاد يقول « ايش اوس . واريد ان ارى آثار «فينا » وجمالها الخالد ، فهل تتكرم الآنسة التي لا اعرف اسمها ، على السيد عباس، اسمي ، ويضاف اليه (ابو رأس الحار) في موطني، ان تريه من الجمال ما يبرد هذا الرأس ؟ »

وعادت تضحك وتقول « اريد ذلك من كل قلبي ، ولكن اوقات فراغي القليلة ، اذ انا اعمل لأعيش ، لا تكفي ، ولكن اليوم هو يوم عطلتي وساكرس لك ما تبقي من هذا اليوم ، فمن اين تريد ان نبدأ . الأثار التاريخية ام الفنية ام الطبيعية ؟ »

-« بل الأثار الطبيعية الحية . اريد ان ارى المتنزهات والحدائق. انه يوم عطلتك، فمن الجرم حرمانك من التمتع به . ايتها الآنسة التي لم اعرف اسمها بعد ... ؟ »

فقاطعته مستدركة معتذرة:« ليلي ومعناه السوسن . »

ومدت له يدها فتأبطها راضياً مرتاحاً، ولاحت السماء والطبيعة في نظره اكثر صفاء واشراقاً وابلغ فتنة .

وتداركت عليه الحوادث ، حافلة باكثر مما كان يتصور وجوده . لقد كان يظن بانه قد تذوق كل جديد .

اخذ وجود الفتاة يستحوذ على حواسه وكيانه شيئاً فشيئاً، حتى اصبح لا يعي من الألفاظ التي كانت الفتاة تشرح بها ما يمران به من اماكن ومرابع الا موسيقى صوتها . وطالت السفرة ، وكان لا يشعر بمرور الزمن . لقد كانت الفتاة مخلصة في ان تريه الاماكن الجميلة ، وما كانت تدري انه قد استغنى بوجودها عن كل ما في الطبيعة من جمال .

وادرك ان المساء قد حل عندما انتقلا الى حافلة جديدة مضت تصعد متمهلة جبلاً شامخاً تغطي سفوحه الغابات .

وسمعها تهمس في اذنه «غابات فينا التي استوحي شتراوس فالسه الشهير منها .»

وها هي ذي قمة « كالمبرك » . وبدت المدينة تحت اقدام الجبل بحر آمن نور ترصه المصابيح المتألقة ، وبان (الدوناو) بين صفين من المصابيح كأنه قد خط بيد رسام ماهر . ولمس كل ذلك الجمال قلبه فازداد رقة . ورأى الفتاة تنظر ساهمة فاحاط كتفيها بذراعه ، واحس بها ترتجف .

فلاحظ بقوله « الطقس بارد . »

-« لا ولكنها ذكريات مؤلمة .ولا تسألني الآن شرحاً . إني اتوسل اليك . »

واراد ان يغير الحديث « ان فينا جميلة رائعة . »

« ولكني اكره فينا . »

« اتكرهين اهلك وذويك ؟ »

« لست من فينا . انني من رومانيا . إني لأحب مرابع طفولتي . لقد اجبرتنا الحرب على الهرب . لقد تركتها باكية ، ويحزنني الا استطيع العودة اليها الآن . انها ذكريات مؤلمة . انها تشوه جمال المنظر ، وتنغص علينا لذة الموقف . »

وشاع في عينيها شيء من المرح بعد الأكل .وفعلت سلافة فينا (نوسبركر) فعلها فتألقت وجنتاها ، وصفت عيناها ، ومضتا تطيلان التأمل في عينيه بتحد وجرأة ، وذاب تكلفها (الفينوي) المبالغ في المجاملات وزيادة اللطف ،

وباغتته « من انت ؟ وماذا تفعل هنا ؟ »

–« انسان من بلاد الله ، انشد الراحة والجمال والحرية ، اتنقل حيث اريد ، واكتب عندما يروق لي ، لست غنياً ، ولكني املك ما استطيع ان احقق به هذه الاحلام في غير اسراف . »

–« وهل ستبقى هنا طويلاً ؟ »

–« ازمع التنقل في العالم . اني ابحث عن تجارب جديـــدة تنعش نفسي وفكري . قد يروق لي ان اسافر غداً ، او لا أسافر قط » .

–« اتبقى في «فينا» ان طلبت منك ذلك ؟ »

وشعر بالدماء تغلي في عروقه ، وبرجفة تجتاحه . ان هاتين العينين كفيلتان بان تستعبداه من جديد ، واجاب على الفور :

–« اجل لو اردت ذلك . »

– « اذن فابق من اجلي . »

– « سابقى ما دمت تريدين ذلك . »

لماذا تريد ان يبقى ، ولماذا قبل ، وما هو الهدف من كل ذلك . انه لا يعلم ، وقد تعلم هي او لا تعلم . انه لا يريـــد ان يفكر . ولاحظت اسرافه في الشراب ، فقالت « لقد اسرفت ، فلنمض » وسارا بين صفين من ادواح القمة . شارع قليل الأضاءة يؤدي الى شرفة طبيعية . والتفتت اليـــه احتواها بين ذراعيه . وارتجف جسمه لما احس بجسدها الصغير يهتز بين ذراعيه ، وتفوه بما لم يتفوه به سابقاً قط ، في كل حياته العابثـــة الساخرة العديمة المعنى . لا يعرف بالضبط مـــا قال ، اما مذاق لسانها وشفتيها ، وملمس ثنيات جسمها اللدن فلـــن يستطيع نسيانه ، بالرغم من ان هذه التجربة ليست الاولى من نوعها في ما مضى من عمره الطويل .

وخرجت به الى النور ، وتطلعت في وجهه جادة . وقالت « ما زلت ترتجف . » فاحتضنها وكأنه كان يخاف ان تفلت منه ، وحتى في الحافلة وهما عائدان ، وما كان يظن انه يستطيع ان يتخلص من وقاره الذي يثقـــل عليه بمثل تلك السهولة وقد وجد في الحافلة من هم اكثر اغراقاً منه في بحران تلك الحمى اللذيذة .

وهمست في اذنيه : « لقد اسرفت في الوعود ، وقد يكون ذلك من فعل الشراب . كم احب ان اراك وانت صاح . »

فاجاب « اني جاد كل الجد . لقد فعلت عيناك فعلهما قبل الشراب بمـــدة طويلة فلماذا تبخسين قدر جمالك ؟ »

–« ولكن فينا مملوءة بالحسان . عيون زرق نجل وشعور ذهبية حريرية الملمس وقامات رشيقة فارهة . ما دمت تبحث عن الجمال فهاك الكثير منه . »

وهجس في نفسه « ان الخبيثة تلهو به . »

وآوى الى فراشه بعد موهن من الليل ، ولم يزر الكرى جفنيه الا لمامـــاً . كانت ظلمة ليلة مضاءة بمصباحين ذهبيين . واستيقظ في غده كمن يستيقظ من حلم لذيذ . وعاد اليه الكثير من عقله . تذكر خطته المزمعة ، وفلسفته في الحب ، يا للشيطان ، ايمكن ان يحدث له كل ذلك ، وفي مثل تلك السن ؟ لقد وعدته الصغيرة ان تعود . وتمنى الا تعود ، سيشقى قليلاً ، والشقاء غير غريب ولا بعيد عنه . سيقول حينذاك « انها فتاة لاهية لعوب ، مرت في ظلمات ليل حياته كالحلم المشرق اللذيذ . وعندئذ يعود الى افكاره الحمقاء وحياته المقفرة المجدبة ، وفلسفته اليائسة . وتذكر موسيقى صوتها العذب الناعس ، ذي المقاطع المعطوطة كأنات كمان حالم ، فأن فؤاده . »

ونظر في ساعته . هو ذا موعد قدومها ، وطرق الباب فارتجف واطلت عليه من وراء الباب شمسان صغيرتان ، وسمع الخرير يوقع لحناً جديداً « كيف حالك الآن ، او كنت جاداً امس ؟ »

فسألها بلهجة الحذر الخائف وهو يتقدم نحوها مفتوح الذراعين «وانت؟»

–« اني اكره الكذب . وما كنت نشوى بالخمر ، ولكني لا احب ان آخذ عليك وعداً صدر عنك وانت في نشوة الحب والخمرة » وعندها تأكد ان زمامه قد افلت من يديه ، وان خطته قد اصبحت انقاضاً . وعندمـــا ضمها الى فؤاده شعر بنشوة القيد من جديد . ولكنه كان اكثر ثقلاً واعظم لذة في هذه المرة .

فينا — ذو النون ايوب

دار المعارف

تقدم لناشئة العروبة
بين السابعة والثانية عشرة من أعمارهم

المكتبة الخضراء للأطفال

تحفة جديدة مبتكرة رائعة
من القصص الخيالية العالمية

- سيعتز بها كل قطر من الأقطار العربية لما فيها من فخر للكتاب العرب .
- سيعتز بها كل فتى وفتاة لما فيها من متعة جميلة لعيونهم وقلوبهم .
- سيعتز بها كل والد ووالدة لما تقدم لأطفالهم من غذاء صالح لعقولهم ونفوسهم .
- سيعتز بها رجال التربية والتعليم لما فيها من وسيلة طيبة لتحبيب الكتاب العربي الى الناشئة ولتوجيههم الى طريق المعرفة والخير والجمال ...

صدر منها:

١ . أطفال الغابة
٢ . سندريلا
٣ . السلطان المسحور
٤ . القراءة العجيبة
٥ . البجعات المتوحشة
٦ . الأميرة الحسناء

ثمن النسخة بغلاف ١٥٠ غ.ل. – مجلدة بكرتون ٢٠٠ غ.ل.

يطلب : من جميع المكتبات الشهيرة ومن دار المعارف ببيروت بناية العسيلي – ص.ب ٢٦٧٦